وسائل المقاومة فى صعيد مصر ضد الحملة الفرنسية

د.نبيل السيد الطوخى

إن موضوع مقاومة صعيد مصر ضد الاحتلال الفرنسى قد تم معالجته من قبل فى أكثر من أطروحة [1]، لكن هذه المعالجات رغم أهميتها لم تتوقف عند تحديد أساليب المقاومة وآلياتها والكيفية التى تطورت بها على ضوء التحديات التى واجهتها، ومن هنا بدا من الأهمية دراسة وسائل المقاومة فى الصعيد ومدى فاعليتها، ودلالتها إذا ما قورنت بنظائرها فى المدن والأقاليم الأخرى، وتجدر الإشارة إلى صعوبة دراسة هذا الموضوع، إذ ليس لدينا - لسوء الحظ - مراقبون محليون أمثال الجبرتى (الذى تركزت يومياته على القاهرة) يرصدون وقائع ما جرى بالصعيد، وإنما كل الاعتماد على تقارير القادة الفرنسيين، ومن ثم فإن استخلاص الحقائق من هذه التقارير بعيداً عن المبالغات والأيدلوجيات ليس سهلاً، على أنه يجب التذكير بأن عدداً من هذه التقارير كان مهما، لأنه يقدم صورة واقعية أو ترتفع فيها درجة الموضوعية، خاصة تلك التى كان الضباط الصغار يرفعونها للقيادة الفرنسية المركزية بالقاهرة، حيث كان يتعين عليهم نقل صورة كاملة وحقيقية للمعارك ولعدد الضحايا من الجانبين.

ومن خلال المقارنة بين التقارير المختلفة عن حادثة واحدة نستطيع أن نتعرف على وجه الدقة مسار الأحداث، وثمة مسألة مهمة وهى أن طبيعة تلك التقارير التى كانت أشبه بتقارير إخبارية (صحفية) كانت تولى كل اهتمامها برصد حركة

الناس (المقاومين) وبوصف أدواتهم وطريقتهم فى القتال والحماس... مما يوفر لنا مادة خام (ثمينة) لتحليلها؛ لفهم آلية التعبير عن الموقف من المحتل، والوسائل المتعددة فى مواجهة المحتلين.

شكلت المقاومة المصرية للحملة الفرنسية عاملاً مهماً من عوامل فشل مشروع الاحتلال فى تحقيق أهدافه الاستراتيجية [2]، وعلى رأسها تأسيس مستعمرة فرنسية فى مصر تكون قاعدة لإمبراطورية فرنسية، على غرار الإمبراطورية البريطانية، وقد تعددت أشكال ومجالات مقاومة المصريين للحملة الفرنسية، ورفع المصريون منذ البداية لواء العصيان فى القاهرة وشتى ربوع الدلتا والصعيد وأخذت المقاومة فى الصعيد أشكالا ووسائل مختلفة، تختلف عن المقاومة فى الوجه البحرى، حيث كانت المقاومة فى الصعيد تمتاز بميزة التنظيم وكثرة التجمعات مما جعل الحرب هناك تتخذ شكل الحركات الحربية الحقيقية إذا ما قورنت بالمعارك التى دارت فى الوجه البحرى، والفرق بين الصعيد والوجه البحرى هو أنه كان يسهل إمداد القوات المحاربة فى الوجه البحرى لسهولة التنقل فيها، أما الصعيد فلم يكن الإمداد سهلاً وطول المسافات كان فى صالح المدافعين ومنهكا لقوى المهاجمين، ولاشك فى أن طبيعة البلاد فى الصعيد، وبعد المسافات، وصعوبة المواصلات، وأخلاق السكان، ووجود العصبيات فى هذه المنطقة، ونظرة الأهالى إلى معنى الحياة وقيمتها، قد ساعدت على ضراوة عمليات المقاومة فى الصعيد. كما كانت حماسة أبناء الصعيد، وعقليتهم، وروح فروسيتهم، عوامل تتجمع لكى تخلق منهم قوات مقاتلة شكلت خطراً على الفرنسيين، طيلة فترة الاحتلال، ولم يستسلم الأهالى يوماً ما للوجود الفرنسى فى الصعيد، ولكن ما هى وسائل أهل الصعيد فى مقاومة الفرنسيين؟.

لقد تعددت وسائل أهل الصعيد فى مقاومة الفرنسيين ما بين المقاومة الإيجابية المباشرة (المقاومة المسلحة) والمقاومة غير المباشرة وسوف نتناول كل منهما بالتحليل والدراسة لفهم مدى جدوى هذه المقاومة فى إفشال مشروع الاحتلال والتعجيل برحيله :

أولاً : المقاومة المباشرة الإيجابية :

بعد معركة إمبابة (21 يوليه 1798) وفرار مراد بك إلى الصعيد أرسل نابليون الجنرال ديزيه على رأس حملة إلى الصعيد لمطاردة مراد بك وأتباعه [3]، وفى يوم 25 أغسطس سنة 1798 بدأ الجنرال ديزيه فى السير جنوباً لمطاردة مراد بك والقضاء على قوته، وإخضاع الصعيد للسلطة الفرنسية، وكانت مهمة الجنرال ديزيه شاقة، حيث قام الصعيد بدور هام فى مقاومة الحملة الفرنسية وكانت روح المقاومة تسود سكان القرى والمدن، فلم يكن الأهالى يدعون فرصة تمر دون أن يثوروا فى وجه قوات الاحتلال،وكانوا من هذه الوجهة متصلين بالبقية الباقية من جيش المماليك تعاونهم طوائف العرب القادمين من القصير، فاجتمعت هذه القوى الثلاث واتحدت على مهاجمة الحاميات الفرنسية فى المدن وقطع مواصلات الجيش الفرنسى فى النيل بمهاجمة السفن التى تحمل الجنود والذخائر والأقوات، ولذلك تحرج مركز الجيش الفرنسى وتعددت المناوشات والمعارك والمفاجآت.

وكانت أولى المعارك الحربية بين المصريين والفرنسيين فى الصعيد هى معركة سدمنت (7 أكتوبر 1798) وكان الجيش المصرى فى هذه المعركة تحت زعامة مراد بك يتألف من أربعة آلاف من المماليك، وثمانية آلاف من العربان بينما كانت القوات الفرنسية تحت قيادة الجنرال ديزيه يتألف من ثلاثة آلاف رجل، وواضح أن عدد الجيش المصرى كان يفوق عدد الجيش الفرنسى بكثير، ولكنه كان فى الوقت نفسه يفتقد النظام والتنسيق بين قواته،كما كانت تنقصهم الأسلحة الحديثة المتطورة، بينما نجد الجيش الفرنسى بالرغم من قلة أعداده كان يتميز بالنظام والتنسيق بين قواته، ويملك أسلحة متطورة، وعلى رأسه قيادة حازمة وواعية تتمثل فى الجنرال ديزيه، ومع هذه الميزة الواضحة للفرنسيين فقد قتل منهم فى هذه المعركة – بتقدير المصادر الفرنسية نفسها – ثلاثمائة وأربعون وجرح مائة وخمسون[4]، بينما بلغت خسائر المصريين أربعمائة قتيل وجريح[5]. وانتهت هذه المعركة[6] بانتصار الفرنسيين على المصريين، ويرجع ذلك إلى تفوقهم الحربى الذى أتاحه لهم قوة مدفعيتهم وكثرة

ذخيرتهم، وبما امتازوا به من نظام حربى وقيادة تتمتع بالكفاءة الحربية، وبالرغم من ذلك كادت القوات الفرنسية أن تهزم أمام رغبة المماليك والمصريين الأكيدة فى الانتصار على الفرنسيين فى هذه الموقعة، وكان من الممكن أن يتحقق النصر لمراد بك بفضل ما كان لديه من مدفعية أحدثت خسائر فادحة فى صفوف الفرنسيين لولا هجوم الفرنسيين فى اللحظة الأخيرة والذى أدى إلى هزيمة المماليك وفرارهم[7].

وتعتبر معركة سدمنت أكبر معركة دارت فى الصعيد بين القوات الفرنسية والقوات المصرية، وهى تعد من المعارك التى كان لها أثر كبير فى سير القتال وتطور الأحوال، وهى تلى واقعة إمبابة أو الأهرام، لأنها قضت على آمال مراد بك فى أن ينتصر فى معركة منظمة، كما أنها أعطت للفرنسيين حكم منطقة بنى سويف والفيوم، وهى منطقة غنية بمنتجاتها الزراعية التى كانت لازمة لتموين القاهرة[8].

ولقد ترتب على انتصار الفرنسيين فى هذه المعركة أن تحولت الحرب بين الفرنسيين والمماليك فى صعيد مصر من حرب منظمة إلى عمليات مناوشة مستمرة أخذت شكل حرب العصابات، وإن كانت حرب عصابات يقوم بها الفرسان، ولم يكن أمام المماليك إلا هذه الطريقة بعد أن فقدوا الأمل فى طرد الفرنسيين من الصعيد بواسطة قوة السلاح بعد أن انهارت جهودهم فى هذه المعركة تحت طلقات المدافع الفرنسية[9]. وهذا النوع من المعارك كان يمثل خطراً كبيراً على الفرنسيين، إذ إنه كان يعرضهم للخطر المستمر فى مواقع مختلفة، وفى أوقات مختلفة، ودون أن يتمكنوا من اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمواجهته، ولا شك فى أن طبيعة الأرض فى الصعيد، ووجود المزروعات العالية فيه، وكذلك وجود كل من الجبل الغربى والجبل الشرقى سيسمح لقوات المماليك وقوات أبناء الصعيد بحركات التفاف سريعة، وبمهاجمة كتائب وفصائل الفرنسيين التى ستصبح مبعثرة فى الوادى، وتحاول تأمين المواقع المختلفة، وهذا النوع من المعارك سيفقد الفرنسيين معنى الراحة والطمأنينة وسيجبرهم على مداومة السير والانتقال وبشكل يرهق قواتهم دون أن يتمكنوا من الاشتباك مع خصم واضح، يلحقون به الهزيمة الساحقة[10].

وبالرغم من أن الجيش الفرنسى قد فتح فى طريقه ثلاث مديريات، وهى بنى سويف والمنيا والفيوم، فإن الحالة ظلت مضطربة فى تلك المديريات، وكادت سلطة الفرنسيين تكون مجهولة عند الأهالى، ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الأحوال أن يحصلوا من تلك المديريات على ما يلزمهم من الغلال والجياد. فقد حدث أن الجنرال ديزيه ترك بعض رجاله فى بنى سويف للقيام على شحن الغلال، وفى أثناء حملته النيلية إلى أسيوط هجم الثوار على بنى سويف وأسروا هؤلاء الرجال واستولوا على الغلال التى وجدوها، أما فى المنيا فكانت الحالة أكثر اضطرابا وأقل استقرارا، وكانت ثمة سفينة حربية تجوب هذه الجهات وتحمى القوة التى بالشاطئ من هجمات الأهالى، ونزلت بالمنيا فصيلة من الجنود ليتزودوا منها وأبوا أن يدفعوا ثمن ما اشتروه، فثار الفلاحون الذين كانوا بالسوق وقتلوا من الجنود خمسة وجرحوا منهم ثمانية، وكاد يستشرى الهياج لولا الحكمة من سكان البندر[11]. وبعد أن احتل الفرنسيون مدينة الفيوم هاجمهم فيها عدد هائل من المماليك والعرب والفلاحين، واقتحم الثائرون أسوار المدينة، وتغلبوا على حراسها، ثم اندفعوا كالسيل إلى مقر القيادة الفرنسية، فظلوا يهاجمونه نهارا كاملا ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه، لمناعته ووفرة الذخيرة عند جنوده[12]، وانتهى اللقاء بهزيمة الثوار، وكانت هزيمة أبناء الصعيد مرتبطة بعدم خبرتهم بالحرب، ولأنهم كانوا يحملون أدوات بسيطة لم تستطع أن تصمد أمام نيران الفرنسيين، ومع ذلك بقيت مقاومة أهل الصعيد للفرنسيين قوية ولم تضعف ولم تنكسر.

وواجه الفرنسيون فى الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة المدى،فقد سرت روح الثورة فى أربعين بلداً، وبلغ عدد الثوار كما قدرتها المصادر الفرنسية ما بين ستة إلى سبعة آلاف من الأهالى[13]، ولكن الفرنسيين عاجلوها قبل أن تتحد عناصرها، واستطاعوا أن يخمدونها، وتصدوا لقواتها المبعثرة معتمدين على نظامهم الحربى ومدافعهم القوية وبنادقهم الحديثة، فكانت المعارك التى نشبت بينهم وبين الأهالى أشبه بمذابح فتكت فيها نيران المدافع والبنادق بعدد من الأهالى

محرومين من النظام غير مزودين إلا بأسلحة قديمة[14]، وفشلت ثورة الأهالى فى تحقيق غرضها. لكن من كان وراء تنظيم هذه الثورة ؟.

يعتقد البعض أن مراد بك أرسل احد أعوانه المشهورين بالنشاط والحذق واسمه عثمان بك، فمر بين أسيوط وجرجا وقطع الطريق بينهما، وهيج الأهالى وحَملهم على محاربة الفرنسيين[15] وإذا كان هذا صحيحا فإننا لا نستطيع أن نغفل أن نفوس الأهالى كانت مهيأة للثورة ومستعدة لها؛ وذلك لرغبتهم فى تخليص البلاد من الفرنسيين.

وفى سوهاج (3 يناير 1799) احتشدت قوة من الثائرين قدرتهم المصادر الفرنسية بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحراب يشد أزرهم ثمانمائة من الفرسان[16] فقرر الجنرال ديزيه أن يقضى على هذه الثورة، وأمر ديزيه الجنرال دافو بالقضاء عليها، ونشب القتال بين الفريقين، ولكن الأهالى على كثرتهم لم يكونوا معتادين على خوض المعارك الحديثة، فأصلتهم فرقة الفرسان نارا حامية تراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى[17] ومع ذلك لم تنكسر شوكة الثائرين رغم هزيمتهم الثانية فى معركة طهطا فى 8 يناير سنة 1799؛ حيث خسروا ألف قتيل كانت الغالبية العظمى منهم من الأهالى المشاة [18]، وانتقم الفرنسيون انتقاماً فظيعاً من القرى التى أطلقت عليهم النار، فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها[19]؛ وفى 22 يناير سنة 1799 وقعت معركة سمهود[20] بين جيش مراد بك والجيش الفرنسى، و كان جيش مراد بك يتكون من حوالى أربعة عشر ألف مقاتل، بينما كان الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال ديزيه مؤلف من خمسة آلاف مقاتل مزودين بالمدافع والبنادق الحديثة[21] وقابل الجيش الفرنسى الثوار الذين كانوا يفوقونه عددا ولكن ينقصهم النظام والمدفعية ومقدرة القيادة، ويرجع إلى ذلك السبب فى انهزام الثوار فى هذه المعركة[22]. وانتهت هذه المعركة بانتصار الفرنسيين وهزيمة مراد بك وانسحابه جنوباً، وإذا كان لهذا الانتصار من نتائج فإنه فتح الطريق أمام الجيش الفرنسى لمواصلة زحفه جنوباً دون أن تعترضه عقبات لها قيمتها[23].

ويذكر أحد المعاصرين الفرنسيين أنهم (لو كانوا فى أوربا لكانت موقعة سمهود قد أعطتهم السيطرة على الصعيد كله، ولكن مراد بك لم يستطع تقبل فكرة تفوق الفرنسيين ، وبالرغم من معرفته بقوتهم، وعدم وجود الإمكانيات لديه إلا أن شجاعة هذا الرجل وقوة شخصيته وتفاؤله لم يمسوا) [24]. ولكن أهم النتائج التى ترتبت على هذه المعركة تتلخص فى أن مراد بك كان قد غير خطته الحربية بعد هذه المعركة، ويذكر مصدر آخر (أن مراد بك قرر بعد معركة سمهود أن ينهك قوانا فى تحركات طويلة ومرهقة، وهذا الأسلوب قد سلبنا ثمار انتصار سمهود فاضطررنا للعدو خلف عدو لا يتركنا نقترب منه إلا عندما تسمح له ظروفه بالقتال) [25]، وهكذا أدت هذه المعركة إلى تغيير مسار الحرب فى الصعيد وجعلت كلا الطرفين المتحاربين يغيران من خطتهما الحربية طبقاً لظروف كل منها،ويمكن القول بأن معركة سمهود يمكن إضافتها إلى معركة سدمنت ومعركة إمبابة أو الأهرام بصفتها من المعارك الفاصلة، والتى تستحق هذا الاسم فى تاريخ مصر الحربى فى عهد الحملة الفرنسية.

واستمرت المقاومة بين الأهالى والفرنسيين، وتجدد القتال بين جرجا وأسوان (فبراير سنة1799)، وكذلك حدثت اضطرابات ومعركة فى الردسية، (11 فبراير 1799) [26]، وهاجم الأهالى القوات الفرنسية عندما وصلت إلى قنا (12- 13 فبراير سنة 1799)، [27] ثم حدثت معركة مع المقاومة المصرية فى أبو مناع (17 فبراير سنة 1799)، [28] ثم فى إسنا [29] (25 فبراير سنة 1799). وفى كل هذه المعارك كانت المدفعية الفرنسية تتغلب على البنادق والأسلحة القديمة التى كان يستعملها الأهالى وعرب الحجاز، وبالتالى كانت الهزيمة تحل بالثوار، لقد كان ميزان القوة غير متكافئ، وبالرغم من إدراك المصريين لقوة خصمهم لم ينوا لحظة عن مقاتلة الفرنسيين، وقاوموا مقاومة أعنف فى الصعيد، حيث الرجال أشد بأسا، وحيث الطبيعة الجغرافية تساعد على حرب الكر والفر.

وجدير بالذكر أن انتصارات الفرنسيين لم تكسر شوكة البلاد،ولم تضع حداً

للمقاومة الأهليـــة، فالأهالى وحلفاؤهم من العرب والمماليك كانوا يجمعون فلولهم بعد المعارك التى هزمهم فيها الجيش الفرنسى ثم يعودون لإثارة المقاومة واستئناف الهجوم، وكل معركة كانت تترك لهم ثأراً على الفرنسيين، وبذلك لا تنقضى معركة إلا ولدت معركة جديدة.

وإذا كانت معظم المعارك بين الأهالى والفرنسيين قد انتهت لصالح الفرنسيين، فإن الأهالى قد حققوا فى بعض الأحيان انتصارات مهمة على الفرنسيين، ومن ذلك ما حدث فى معركة أبنود النيلية (3 مارس سنة 1799)[30]، والتى كانت إحدى المعارك الكبرى فى حركة المقاومة فى الصعيد، فقد هاجم الثوار الأسطول الفرنسى، وأطلقوا عليه الرصاص، وانتهت المعـركة بهزيمـة الفرنسـيين، وكانت خسارتهم فادحة، فبلغ عدد قتلاهم من البحارة خمسمائة قتيل، وهى أكبر خسارة مُنى بها الجيش الفرنسى فى حملته على صعيد مصر، وغنم المصريون وعرب الحجاز فى هذه المعركة الكثير مما كانت تحمله السفن الفرنسية من عتاد وذخائر ومدافع استغلوها فيما بعد فى معاركهم ضد الفرنسيين.

وعندما علم الجنرال بليار بما حدث للفرنسيين فى موقعة أبنود النيلية وأنهم انهزموا شر هزيمة اتجه بليار وجنوده فى طريقهم إلى أبنود للانتقام من الأهالى وعرب الحجاز، ولاسترداد الأسلحة والمدافع الفرنسية التى استولوا عليها حتى يجردوا المقاومة الشعبية من أى سلاح حديث.

وفى أبنود واصل الثوار معركتهم ضد الفرنسيين، فتحصنوا فيها، ونصبوا بها المدافع الفرنسية التى غنموها فى موقعة أبنود النيلية، و أخذوا يطلقون النار منها، ففتكت بالفرنسيين فتكاً شديداً وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة فى صفوف المصريين، وهنا أدرك الجنرال بليار أن موقفه أصبح محفوفاً بالخطر وأن منشأ الخطر وجود المدافع الفرنسية فى يد أبناء الصعيد، فوجه قوة جيشه كلها للاستيلاء على هذه المدافع ونجح فى خطته فاسترجع الفرنسيون مدافعهم، وجردوا أبناء الصعيد من أقوى سلاح كان فى يدهم[31].

ودامت المعركة ثلاثة أيام متوالية (8 – 9 – 10 مارس سنة 1799) وأظهر فيها أبناء الصعيد قوة فى المواجهة، فلما تغلب عليهم الفرنسيون ظلوا يحاربونهم فى شوارع المدينة ويدافعون عن كل بيت فيها، وعن كل شبر من أرضها، فلم يجد الفرنسيون بدا من إشعال النار فيها فأشعلوها، فتحولت القرية إلى أكوام من الخرائب،ولم يستسلم الأهالى ومعهم عرب الحجاز وتحصنوا فى منزل وفى مسجد يجاوره، وواصلوا إطلاق النار منهما فأحرق الفرنسيون المنزل والمسجد أيضا[32].

وجدير بالذكر أن الأهالى وعرب الحجاز أو المكيين كما تنعتهم المصادر الفرنسية قاوموا الفرنسيين مقاومة مستميتة شهدت بها المصادر الفرنسية حيث يقول دومينيك دى بيترو: (وفى الحقيقة إننا لم نشهد أبدا منذ قدومنا إلى مصر مقاومة بهذا العنف وبهذه الضراوة) [33] وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا وأطولها مدة، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت 72 ساعة، وكان حريق أبنود وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت فى معارك الحملة الفرنسية. واستمرت مقاومة أهل الصعيد ضد الحملة الفرنسية، ففى بئر عنبر [34] على الطريق بين قنا والقصير قامت معركة عنيفة بين الثوار والفرنسيين فى 2 أبريل سنة 1799، وأوشك الجنرال ديزيه القائد العام فى الوجه القبلى أن يُقتل، وانسحب الثوار من ميدان المعركة بعد أن أوقعوا بالفرنسيين خسائر فادحة[35].

واستمرت المقاومة فى صعيد مصر ضد الحملة الفرنسية، فتجددت الثورة مرة أخرى بين قنا وجرجا، وما كان ذلك إلا انتهاز الثوار لفرصة خلو البلاد من القوات الفرنسية الكافية، فاستأنفوا حركاتهم الثورية فى مديرية جرجا، فحدثت معارك فى برديس (6 أبريل سنة 1799)، ثم فى جرجا (7 ابريل 1999)، ثم فى جهينة (10 أبريل سنة 1799)[36].

وانتهت هذه المعارك بهزيمة الثوار من أبناء الصعيد وحلفائهم العرب والمماليك، ورغم ذلك لم يفقد الثوار الأمل فى تحقيق النصر، وظلوا يناضلون، وامتدت الثورة إلى أسيوط وسرت إليها من فلول الأهالى والعرب الذين انهزموا فى جرجا وجهينة،

واتخذ الثوار (بنى عدى) [37] معسكراً للثورة، وفى 18 أبريل سنة 1799 أحاطت القوات الفرنسية ببنى عدى، واشتبك الفريقان فى معركة حامية دارت رحاها فى طرقات بنى عدى، وفى بيوتها التى حصنها الأهالى وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود الفرنسيين، فلقى الجيش الفرنسى فى بنى عدى ما لم يلق مثله فى كثير من البلاد[38].

واستمر القتال إلى الليل وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنيران الفرنسية على مقاومة الأهالى، ذلك أن الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على بنى عدى لجأوا إلى وسيلة الحريق التى اتبعوها فى أبنود وغيرها، فأضرموا النار فيها، وبذلك استطاعوا كسر مقاومتها والتغلب على الأبطال من أهلها[39].

ورغم قسوة الفرنسيين فى الانتقام لم تنكسر شوكة الثائرين، وهاجم الثائرون الحامية الفرنسية فى المنيا ثلاثة أيام متوالية (23- 25 أبريل سنة 1799) وغلبوا الحراس على أبوابها واقتحموها، ولكن الفرنسيين فى اليوم الثالث تغلبوا عليهم وعادت السكينة إلى المدينة[40]. وقد ذكرت مصادر فرنسية " أن حامية المنيا سلمت من القتل بفضل السلوك الهادئ لمشايخ البلد فى المنيا، والغالبية العظمى من سكانها فلو أنهم حملوا السلاح فى وجه الفرنسيين لما بقى منهم أحد" [41]، وقد أسقط الفرنسيون ثلث الضرائب التى فرضوها على أهالى المنيا، مكافأة لهم على سكينتهم فى أيام المعركة الثلاثة. وزادوا ما أسقطوه على الضرائب المقررة على أهالى القرى التى هاجمتهم [42].

وقرر الجنرال ديزيه الاستيلاء على القصير، لأنه الثغر الوحيد الواقع على البحر الأحمر الذى يصل منه المدد إلى الصعيد، فمنه جاء عرب الحجاز الذين شدوا أزر الأهالى فى مقاومة الفرنسيين، وتم للفرنسيين احتلال القصير(29 من مايو سنة 1799)[43]، ومع ذلك لم تخمد المقاومة المصرية التى لم تهدأ إلا لتثور.

مقاومة منظمة أم عفوية ؟

وبعد أن عرضنا لوسائل المقاومة المباشرة للصعيد ضد الحملة الفرنسية، يبدو من الأهمية بمكان أن نناقش بعض سمات هذه المقاومة :

هل كانت المقاومة منظمة أم عفوية، وهل كانت فى الصعيد ثورة نظمت على مستوى كل القرى، وهل كانت وراءها قوة منظمة لها تعمل على نشر هذه الروح فى كل مكان، وعلى اختيار الموعد المناسب للمواجهة، وهى التى تحدد الأدوات التى يستخدمها الأهالى فى المعارك، وتقوم بتمويلهم من مال وسلاح، وهل كانت مدعومة بتحفيز وتدعيم المماليك، أم مقاومة ذاتية محلية عبر عنها الفلاح المصرى فى صعيد مصر عن كيانه وذاته وخصوصيته التى شعر أنه تم اجتياحها من قبل الغزاة الأجانب؟.

فى ضوء دراسة التقارير الخاصة بالثورات والتى دونها القادة الفرنسيون يمكن القول بأن ثورات الأهالى فى الصعيد ضد الاحتلال الفرنسى كانت غير منظمة على المستوى العام.فلم يكن للثورة قيادة عامة على مستوى الصعيد ككل من الجيزة شمالاً حتى أسوان جنوباً ومن القصير شرقاً إلى واحات الصحراء الكبرى غرباً.ولم يكن هناك ممولون للثورة على المستوى العام أيضاً، وحتى المماليك الذين كانت أمامهم فرصة لتولى قيادة الأهالى فى المعارك وتنظيمهم بحكم طبيعتهم العسكرية، إذا بهم يفرون أثناء المعارك وتركوا عبء القتال على عاتق الأهالى وحدهم.

وإذا كانت ثورات الصعيد ضد الفرنسيين غير منظمة تنظيماً دقيقاً إلا أنها أتعبت بل وأجهدت قوات الاحتلال الفرنسى وتركت فى نفوسهم أثراً قوياً لم يستطيعوا أن يتحملوه، خصوصاً بعد أن أدخل المصريون تعديلاً جديداً فى خطة مقاومتهم؛ إذ جعلوها بعد معركة سدمنت مقاومات محلية تقوم أساساً على عنصر المفاجأة، وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطراً على الجيش الفرنسى من المعارك المنظمة، فلم يهدأ للفرنسيين بال ولم يستقر لهم قرار خلال الحملة على الصعيد بل كانوا هدفاً

للمفاجآت والمعارك غير المنتظرة، لأنهم فقدوا الراحة والطمأنينة واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات، والرحلات المنهكة للقوى دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال. وهذا الشكل من المقاومة جعل الفرنسيين يشعرون دائماً أنهم محاطون بالأعداء. وبالرغم من عدم وجود قيادة عامة بالصعيد وقتئذٍ تدير عمليات المقاومة وتنظمها وتمولها على مستوى الصعيد ككل، إلا أن الصعيد لم يخلُ من وجود قيادات محلية على مستوى بعض المناطق أو بعض المديريات مثلما حدث فيما بين أسيوط وجرجا حيث شبت الثورة فى نحو أربعين بلداً، وفى وقت واحد، وهذا الحدث يدل على أن هذه الثورة كان لها قيادات منظمة لتحريك الثورات فى وقت واحد لمقاومة الفرنسيين، ويعطى انطباعاً عاماً بأن هناك قيادات مهمة لعبت دوراً مهماً فى تنظيم آلية الثورة واختيار ميقاتها، ويبدو أن كبار الأعيان كان لهم دور هام فى إثارة بلادهم ضد الفرنسيين، وتنظيم قوة المقاومة بها، لهذا قام الجنرال "ديزيه" بجمع مائتى رجل من الأعيان من أهل البلاد الواقعة بين جرجا وأسيوط ليكونوا رهائن عنده فى أسيوط حتى لا يثور أهل البلاد التى أخذوا منها[44].

ولم يقتصر الأمر على جمع رهائن من هذه المنطقة بل أمر "ديزيه" قواده الآخرين باعتقال رهائن أخرى من مناطقهم، بل وصل الأمر بالجنرال "ديزيه" أن يأمر الجنرال "بليار" بأن يقطع رأس كل من لا يطيع أوامره من مشايخ القرى وقطع النخيل وإحراق القرى الثائرة[45].

وكان هذا هو الأسلوب الذى اتبعه بالفعل الجنرال "ديزيه" فى معاقبة الثائرين من مشايخ البلاد وقراهم، فعندما وصل هو وجنوده قبالة جرجا يوم 23 مارس 1799 بقى عدة أيام فى بلاد أحد المشايخ الذين اشتهروا بمقاومة الفرنسيين وهو الشيخ "عبد المنعم" للتنكيل به، فأمر بقطع نخيله، وإضرام النار فى القرى التابعة له[46].

ورغم كل هذه الإجراءات يعترف "ديزيه" فى رسالة إلى "نابليون" بأنه ليس من السهل إخضاع هذه البلاد [47]، ولعل صعوبة إخضاع الصعيد يكمن فيما ذكره الجنرال "دافو" من أن جميع أهالى البلاد فى الصعيد كانوا يحملون السلاح[48].

ويبدو أن أهالى الصعيد كانوا يعانون من نقص فى السلاح، وحاولوا تعويضه بتسلل البعض منهم إلى معسكرات الفرنسيين لسرقة أسلحتهم، أو بهجومهم على الأسطول الفرنسى مثلما حدث فى معركة أبنود النيلية والاستيلاء على بعض المدافع والأسلحة الفرنسية التى استخدموها فيما بعد فى معاركهم ضد الفرنسيين، وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها المقاومة الشعبية سلاحاً حديثاً. وأدركت قوات الاحتلال أن موقفهم أصبح محفوفاً بالخطر، وأن منشأ الخطر يتمثل فى وجود الأسلحة والمدافع الفرنسية فى يد أبناء الصعيد، لهذا كان من الطبيعى أن تعمل على استرداد هذه الأسلحة لتجريد الأهالى من أقوى سلاح كان فى يدهم، وقد نجحت فى ذلك، ولاشك فى أن استخدام الأهالى للسلاح الحديث وهم ليس لهم دراية به يدل على أن المقاومة كانت تحمل وراءها روح وحماسة وموقف وإيمان بالعمل الثورى[49]، ومما يحسب للمقاومين أنهم استخدموا كل ما وقع تحت أيديهم من أدوات سواء كانت محلية مثل العصى والسيوف والبنادق والمدافع القديمة الصنع أو الأدوات الحديثة الصنع والتى تمثلت فى البنادق والمدافع الفرنسية التى حصلوا عليها من جيش الاحتلال بأكثر من وسيلة كما ذكرنا، وعندما نجحت قوات الاحتلال فى استرداد أسلحتها، لم يقف الأهالى مكتوفى الأيدى بل حاربوا بما هو متاح بأيديهم من الأسلحة البسيطة والقديمة الصنع، يضاف إليها عزيمتهم وإصرارهم على المقاومة.

ولكن ما هى مقومات حركة المقاومة فى الصعيد؟

قامت حركة المقاومة فى الصعيد على ركائز أساسية تمثلت فى حماسة أبناء الصعيد وروح فروسيتهم، ووجود العصبيات، وكثرة التجمعات، ومقدرة على توحيد الصفوف الجماهيرية ووعى بالمقاومة لدرجة أن النساء والأطفال مع الرجال خاضوا غمار المعارك، حيث أحسوا بدورهم فى النضال، وكل هذه الركائز مجتمعة كانت عوامل ساعدت على ضراوة عمليات المقاومة فى الصعيد.

ومن خلال عرضنا للمقاومة الإيجابية لاحظنا أن الأهالى وحلفاءهم يقومون

بالهجوم على قوات الاحتلال الفرنسى فى أوقات بعينها مما يجعلنا نتساءل: هل طريقتهم فى اختيار التوقيت كانت دليل على متابعتهم لأخبار التحركات الفرنسية؟ للإجابة على هذا التساؤل يمكن القول إن المقاومين كانوا يتابعون أخبار القوات الفرنسية وتحركاتها، والصعاب التى تواجهها، وذلك لضرب قوات الاحتلال فى التوقيت المناسب، فعلى سبيل المثال انتهز الأهالى والمماليك فرصة خلو البلاد من القوات الفرنسية الكافية فاستأنفوا حركاتهم الثورية فى مديرية جرجا، ولم يكن هذا من فراغ بل كان نتيجة لمتابعة دقيقة من قبل المقاومين فى صعيد مصر لتحركات القوات الفرنسية ورصدها، وتجدر الإشارة إلى أن كلا الفريقين (المصرى والفرنسى) كانت له عيونه (جواسيس) التى تمده بأخبار الآخر، وتذكر الوثائق الفرنسية " أن مراد بك كان يعلم بمتابعتنا له ولذلك، فقد قام بالسير ليلاً بطريقة ملتوية لأكثر من أربعة فراسخ "[50]، وكان مراد بك يخدع جواسيس الجنرال "بليار" ويتحرك عكس توقعاتهم[51] وقدم الفرنسيون إغراءات لبعض القبائل المتحالفة معهم تمثلت فى الإعفاء من الضرائب بشرط أن تساعدهم فى محاصرة مراد بك والقضاء عليه[52] وكانت هناك فرقة استطلاع للفرنسيين لتتعرف على الأماكن التى يتوجه إليها مراد بك، كما كان لهم عيون من الأعراب وغيرهم من الجواسيس ليخبروهم بمسيرة مراد بك.

كما أن مراد بك كان له جواسيسه أيضا ليتعرف على أماكن وجود الفرنسيين وقواتهم، وليس هناك شك فى أن مشايخ القرى ومشايخ العربان كانت لهم عيون أخبار أيضاً يحصلون من خلالها على معلومات تفيد باقتراب الفرنسيين منهم وعدد قواتهم حتى يستطيعوا أن يعدوا أنفسهم للتعامل معهم، أو يفكروا فى ترك قراهم ويرحلوا إذا ما أحسوا أنهم لن يستطيعوا الوقوف ضد الفرنسيين، وهكذا يمكن القول إن كل فريق كانت له عيون تراقب عدوه ليل نهار لتنقض عليه فى ساعة ضعفه حتى تنال منه وتهزمه.

وفى سبيل تحقيق ذلك دارت حرب نفسية بين كل فريق، فمراد بك كان يدعى على

حد قول الوثائق الفرنسية " أن معه 10.000 رجل "[53]، " وينشر الإشاعات بقدوم الباشاوات، وقد أشاع أيضاً أنه تسلم خطاباً من الصدر الأعظم يأمره فيه باسم السلطان سليم بأن يخوض حرباً حتى الموت ضد الفرنسيين على الضفة اليسرى"[54].

ورغم اعتقاد الفرنسيين بأن ما يقوله مراد بك غير صحيح، إلا أنهم كانوا يتأثرون بما يقول، كما كان الفرنسيون يعملون على بث الرهبة فى قلب مراد بك واتباعه بما يملكون من مدافع[55]، وأسلحة حديثة، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان الفرنسيون يعتقلون كبار الأعيان من شيوخ القرى والقبائل وضربهم أحياناً[56] للتأثير على نفسية الأهالى ودفعهم إلى الاستسلام، كما أن قيامهم بحرق القرى الثائرة كان يدخل أيضاً ضمن الحرب النفسية للتأثير على القرى المجاورة حتى لا تلجأ إلى الثورة على ما أصاب القرى المحروقة.

ويمكن القول بأن الفرنسيين قد انتصروا على قوات المقاومة فى الصعيد فى أكثر من موقعه، إلا أن انتصارات الفرنسيين لم تكسر شوكة البلاد ولم تضع حداً للمقاومة الأهلية، فإن الأهالى وحلفاءهم من العرب والمماليك كانوا يجمعون فلولهم بعد المعارك التى هزمهم فيها الجيش الفرنسى، ثم يعودون لإثارة المقاومة واستئناف الهجوم، وكل معركة تترك لهم ثأراً على الفرنسيين، وبذلك لا تنقضى معركة إلا وتُولد معركة جديدة.

وكما رأينا فقد حقق الأهالى وحلفاؤهم انتصارات على الفرنسيين فى بعض المواقع بل إن أكبر خسارة لحقت بالجيش الفرنسى فى مصر كانت فى "معركة أبنود النيلية"، وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات شتى لاعداد لها، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال، وصار ديزيه يحارب حرباً لا نهاية لها، فى ميدان واسع مترامى الأطراف يمتد من الجيزة شمالاً إلى أسوان جنوباً ومن القصير شرقاً إلى واحات الصحراء الكبرى غرباً، دون أن يصل إلى إخضاع البلاد إخضاعاً تاماً أو إقرار السلطة الفرنسية بها.

ثانياً : المقاومة غير المباشرة :

كانت المقاومة غير المباشرة وسيلة أخرى من وسائل المقاومة، وكانت هذه الوسيلة لا تقل فى عنفها وعنادها عن المقاومة الإيجابية، وكان لها أثر كبير فى إضعاف سطوة الفرنسيين وجعل احتلالهم للبلاد غير مفيد، بل غير هين ولا يسير، وتعددت وسائل المقاومة غير المباشرة ما بين هجر الفلاحين لقراهم، ورفض التعاون مع الفرنسيين، والامتناع عن دفع الضرائب، وسرقة أسلحة الفرنسيين، ولتوضيح أهمية هذا النوع من المقاومة يتعين أن نتوقف على سماتها وما ساهمت به من دور فى جعل مشروع إقامة مستعمرة فى مصر أمر صعب المنال :

1- هجر الفلاحين لقراهم :

كان الفرنسيون يحسون دائماً أنهم فى بلد يكرههم كل من فيه، ويعاديهم ويتربص لهم، ويعمل جاهداً بكل حيلته وقوته للقضاء عليه، ولم يتولد هذا الإحساس بداخلهم من فراغ بل كان نتيجة للواقع الذى عاشته الحملة الفرنسية فى الصعيد، وكانت سياسة هجر الفلاحين لقراهم وسيلة فعالة من وسائل المقاومة غير المباشرة التى كان لها أثر كبير فى إضعاف الروح المعنوية لقوات الاحتلال، وشعر قواد الجيش الفرنسى بتلك الحالة النفسية، وأفضوا بها إلى القيادة العليا فى رسائلهم وتقاريرهم، ودونوها فى مذكراتهم، ومن ذلك ما ذكره الجنرال بليار فى يومياته حيث قال: " إن كل القرى التى نجتازها نجدها خالية من السكان لأنهم يخلون قراهم قبل نصل إليها "، كما كتب بليار إلى الجنرال ديزيه قائلا "إننا نعيش هنا عيشاً ضنكاً، فإن جميع القرى تخلوا من السكان كلما اقتربنا منها، ولا نجد شيئاً من القوت ولا نرى فلاحاً واحداً يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا ولا أدرى السبب فى هذه الحالة، على أننا مع ذلك لا نعمل عملاً ضارا فى البلاد التى نجتازها"[57].

لقد تجاهل بليار أن سياسة هجر الفلاحين لقراهم كانت دليلا على القسوة

البالغة التى كان يجنح إليها الفرنسيون فى معاملة أهل تلك القرى، فكلما نزل الفرنسيون قرية واستقروا بها وجد الفلاح أدواته ومحاريثه وأبوابه وسقوفه وكل شىء قابل للاشتعال وقد أحرقها هؤلاء الجند لطهى طعامهم، ثم يقدمون على تحطيم آنيته الفخارية، واستهلاك غلاله وذبح دواجنه وحمامه وشيها على النار والتهامها ثم الأخطر من كل هذا هتك عرض بناته وزوجاته[58]. وسمع الفلاحون عن سلب ونهب الفرنسيين للقرى التى يمرون عليها وانتشرت الأخبار فى قرى الصعيد، وبدأ الأهالى يخلون قراهم ويفرون بعيداً عنها حاملين معهم ما يستطيعون من أمتعة وأموال وغلال وحبوب وماشية وتركوا مساكنهم خاوية؛ خوفاً من مهاجمة الفرنسيين لها ونهبها، ويمكن القول إن هجر الفلاحين لقراهم كان وسيلة من وسائل المقاومة السلبية ضد الحملة الفرنسية والتى كان الغرض منها حماية الأهالى لأنفسهم من ويلات الاحتلال الفرنسى.

2- رفض التعاون مع الفرنسيين :

كان الفرنسيون يتساءلون عن سبب رفض أبناء الصعيد التعاون معهم، وكان هذا يعد شيئاً طبيعياً بالنسبه للفرنسيين طالما كانوا يعتقدون أنهم أتوا للعمل من أجل مصلحة الأهالى وإنقاذهم من حكم المماليك الطغاة، لكن أهل الصعيد كانوا يعلمون أن قوات الحملة لم تأت لتخلصهم من المماليك بل لتستولى على أرضهم وتتمتع بخيرات بلادهم، لهذا قاموا بمقاومتهم بكل الوسائل ورفضوا رفضاً تاما التعاون مع قوات الاحتلال، فكان الأهالى يمتنعون عن مساعدة القوات الفرنسية أو إمدادها بالأقوات التى تطلبها، ومن ذلك ما حدث فى قرية (أبو جرج)[59]. فعندما وصل الجنرال دافو إليها بعث ببعض مندوبيه إلى شيخ القرية طالبين منه المؤن للجيش الفرنسى، فرفض شيخ القرية طلبهم قائلاً : " بأنه لا يوجد طعام للفرنسيين فى قريته، وأن قواتهم قد دمرت فى الجنوب، وأنه إذا لم ينسحبوا فسوف يلاقون مصير إخوانهم "[60]. وعاد رسل الجنرال دافو بهذا الرد الذى يعنى أن أهل القرية قد رفضوا إمدادهم بالمؤونة، وأنهم على أتم استعداد لمواجهته، ولم يهتم

الجنرال دافو بهذه التهديدات واتجه إلى القرية التى استقبلته بالطلقات النارية، وقام الأهالى يشد من أزرهم عربان الجهمة[61] بإلقاء التراب على رءوس الفرنسيين كعلامة للموت، وعلى الفور قامت القوات الفرنسية بمحاصرة القرية، ودخلتها من عشرة أماكن[62]، وأمر الجنرال دافو جنوده بقتل وحرق كل شىء فى القرية فاشتعلت النيران فى القرية، وسالت الدماء فيها، وكانت خسارة الأهالى جسيمة فبلغت كما قدرتها المصادر الفرنسية بألف قتيل[63]، ومن الأمور ذات الدلالة على رفض أهل الصعيد التعاون مع الفرنسيين رفض الأهالى أن يسلموا للفرنسيين أى مركب من مراكبهم عندما أراد الفرنسيون أن يعبروا النيل إلى جزيرة فيلة على مراكبهم[64].

3- **الامتناع عن دفع الضرائب :**

كان الفرنسيون بحاجة ماسة إلى الأموال لسد نفقات الجيش الذى انقطع عنه كل مدد بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبو قير البحرية (أول أغسطس 1798) وكانت النتيجة مزيد من التعسف الواقع على الفلاحين، وكانت أوامر الجنرال ديزيه لقواده فى المديريات التى يسيطرون عليها أن يجرى الاهتمام فى كل مكان بنشاط لجمع الخيول وجباية الضرائب، ولم يكن الأهالى يسلمون الضرائب بسهولة، وكانوا يماطلون حتى يروا الجنود الفرنسيين وسط القرية حاملين أسلحتهم، وهنا فقط يستطيع الفرنسيون جمع الضرائب المسماه الميرى.

ولقد أكدت كثير من وثائق الحملة الفرنسية على أن عملية جمع الضرائب من الفلاحين لم تكن تتم إلا بمعاونة الفرق المسلحة[65]. وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على مدى الأعباء المالية التى كان الفلاحون يتحملونها مما أثار سخطهم على الفرنسيين.

وتذكر وثائق الحملة الفرنسية أن ثمانى قرى فى إقليم المنيا قامت بالثورة ضد السلطة العسكرية الفرنسية رافضين دفع أى ضريبة، ولما أبلغهم القائد العسكرى

للإقليم الجنرال بوييه Boyer بحتمية دفع الضرائب، ردوا عليه بأنهم لن يسمحوا لأى فرنسى بأن يطأ أرضهم، ولكن الجنرال بوييه ذهب ومعه 120 من رجاله وحاصر ثلاث قرى فاضطرت هذه القرى إلى الإذعان ودفع الضرائب[66]. كما رفضت القبائل المستقرة فى مصر الوسطى دفع الضرائب للفرنسيين.ولاقى الفرنسيون مشقة فى جمع الضرائب فى كثير من القرى التى يقطنها العربان[67]. ورغم كل الجهود التى بذلها رجال الحملة الفرنسية فى جمع الضرائب فإن الجنرال ديزيه بعث إلى بونابرت يشكو من قلة أموال الميرى التى جمعها رجاله[68].

ويمكن القول إن الفلاحين والعربان بصعيد مصر كانوا يمتنعون عن دفع الضرائب، ولا يدفعونها إلا بعد مقاومة مستميتة وتحت تهديد السلاح، وكان الامتناع عن دفع الضرائب يمثل وسيلة من وسائل المقاومة السلبية ضد الحملة الفرنسية. كما كان هناك نمط آخر من أنماط المقاومة على مستوى جباة الضرائب فثمة دراسة حديثة[69] أثبتت أن المجموعات المتعلقة بجباية الضرائب (وهى المعلمين الأقباط – الأفندية – شيوخ القرى) كانوا يستغلون جهل الفرنسيين بطبيعة النظام المالى ومن ثم فقد واجه الفرنسيون خصماً عنيداً يقاوم ضغوطهم وآلاتهم العسكرية بسلاح المعرفة الحسابية، ونجح المصريون فى استخدام هذا السلاح بكفاءة ومقدرة حالت دون تدفق أموال الضرائب المفروضة على المصريين إلى خزانة الجيش الفرنسى على نحو لم يتوقعه أو يقدره الفرنسيون مما ساهم فى إفشال مشروعهم الاستعمارى فى النهاية.

4– سرقة أسلحة الفرنسيين :

ومن الحوادث التى تدل على تأصل روح المقاومة فى نفوس المصريين، ما سجله الفرنسيون عن طفل ريفى من أهل قرية الفقاعى[70] استطاع أن يتسلل إلى داخل المعسكر الفرنسى، وسرق بندقية أحد الفرسان، وحمل الغلام البندقية وتوجه بها فى طريقه إلى القرية فرآه فارس آخر من الفرنسيين وجرى خلفه، وجرى الغلام بأسرع ما يمكن ولم يقف إلا بعد أن أصابه الجندى الفرنسى بجرح سيف فى ذراعه، وساقه

جريحاً إلى الجنرال ديزيه للاقتصاص منه، فسأله الجنرال عما دعاه إلى سرقة البنادق، فأجاب الغلام رابط الجأش ناظراً إلى السماء ! إن الله القادر على كل شيء قد أمره بذلك، وأبدى الغلام شجاعة فائقة وأبى أن يدل على المحرضين له وقال لم يحرضن أحد، وإنما ألهمنى الله أن أفعل ما فعلت، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال له فى هدوء وثبات: دونك رأسى فاقطعوه، فدهش الجنرال من شجاعته، ثم أمر الجنرال بضربه ثلاثين جلدة، وتلقى الغلام العقاب بثبات جم[71].

ولا شك فى أن هذا الغلام الذى لم تكن سنه تتجاوز الثانية عشرة كان مثلا لكل أبناء الصعيد فى مواجهة العدوان على حرياتهم ومقدسات أوطانهم. وهذه الحادثة ليست سوى دليل على أن الصغار لهم دور فى المقاومة، ولكن بأسلوبهم، إذ كانوا يتسللون إلى معسكرات الفرنسيين ويسرقون أسلحتهم بالعشرات[72].

ولكن هل فعل الغلام ذلك من تلقاء نفسه أم أن وراء هذه الحادثة تنظيم ما من أبناء القرية كان يفكر فى الدفاع عن القرية فى حالة تعرضها لعدوان من قبل الفرنسيين وكان ينقصهم السلاح فحاولوا سرقته من الفرنسيين بالحيلة عن طريق تسلل الأطفال إلى معسكرات الجيش ؟.

الواقع أن من يتابع أحداث الحملة الفرنسية فى الصعيد لا يستبعد أن يكون ما حدث قد تم من خلال تنظيم ما يدير حركة المقاومة فى الصعيد ضد الحملة الفرنسية، ويدل ذلك على أن سرقة أسلحة الفرنسيين كانت ترمز إلى نوع من أنواع المقاومة غير المباشرة فى الصعيد فهم يسرقون السلاح لأنهم لا يملكون السلاح، وهم بحاجة إليه ليتخذوه وسيلة من وسائل المقاومة ضد الفرنسيين.

5- تشويه الأمهات لبناتهن :

عانى أبناء الصعيد كل ويلات الاحتلال العسكرى على أيدى الفرنسيين وتحت تهديد السلاح وسناكى جيش الاحتلال تعرضت الكثير من النساء فى كثير من القرى والمدن بصعيد مصر لهتك أعراضهن واغتصابهن[73] وكان الجنرالات

الفرنسيون يسمحون لجنودهم باغتصاب النساء ليرفعوا من معنوياتهم[74] وأمام هذه القسوة والوحشية لجنود الاحتلال الفرنسى كانت بعض الأمهات يشوهن بناتهن حتى لا يغتصبن على يد الفرنسيين [75].

ويصور لنا فيفان دينون مشهد من هذه المشاهد عندما احتل الجنرال بليار وجنوده جزيرة فيلة فيقول: " وألقى الجميع الرجال والنساء والأطفال بأنفسهم فى النهر. وكنت ترى النساء الثابتات على فطرتهن الوحشية يغرقن الأطفال الذين لا يستطعن حملهن معهن ويشوهن بناتهن حماية لهن من اغتصاب المنتصرين. ويمكن القول إن تشويه الأمهات لبناتهن كان وسيلة من وسائل المقاومة الشعبية حفاظاً على شرفهن وحماية لهن من اغتصاب المنتصرين"[76].

* * *

لقد واجه الفرنسيون فى الصعيد مقاومة شعبية عامة وعنيدة وعنيفة، وبالرغم من أن أهل الصعيد كانوا يعلمون أنهم يخوضون معركة غير متكافئة بينهم وبين الفرنسيين، إلا أنه لم يخطر ببال أحد من الأهالى الفرار، ولا فكروا فى الاستسلام،وعمت المقاومة الشعبية كل قرى ومدن الصعيد. وتؤكد وثائق الحملة الفرنسية أن شعب الصعيد قد دافع بقوة عن حريته[77] : فلقد مارس الفرنسيون فى صعيد مصر سلسلة متصلة شبه يومية من أعمال القمع والإبادة والنهب والاغتصاب والتنكيل الوحشى مما جعلهم يواجهون ثورة دائمة ومقاومة مستميتة ومتزايدة باستمرار من جانب أهل الصعيد، ولقد استخدم أهل الصعيد كل الوسائل المتاحة فى مقاومة المحتل وذلك على الرغم من حرص الأخير على تجريدهم من السلاح.

وفى النهاية يمكن القول بأن المقاومة فى صعيد مصر نجحت فى توجيه ضربات موجعة للقوات الفرنسية، وكان لهذه المقاومة التى تعددت وسائلها دور كبير فى جعل الاحتلال الفرنسى لا يهدأ له بال ويقرر الرحيل.

الهوامش

(1) انظر على سبيل المثال:
مرسى أحمد إبراهيم: أسوان وعلاقاتها مع جنوب الوادى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر 1798–1839، رسالة ماجستير غير منشورة. بقسم التاريخ. كلية الآداب جامعة المنيا عام 1982، فرغلى على تسن: أسيوط فى النصف الأول من القرن التاسع عشر – 1850. رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بآداب سوهاج جامعة أسيوط عام 1985، نبيل السيد الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية 1798– 1801– الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 1997، ناصر أحمد إبراهيم : الفرنسيون فى صعيد مصر المواجهة المالية (1798– 1801) سلسلة مصر النهضة، عدد رقم 60، دار الكتب والوثائق القومية،القاهرة 2005.

(2) د.أحمد زكريا الشلق: من تقديمه لكتاب د.ناصر أحمد إبراهيم: المرجع السابق ص7.

(3) اعتزم نابليون إخضاع الوجه القبلى إذا رأى أن بقاء قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية، ويكون مثابة للمقاومة الأهلية، ويعطل الملاحة فى النيل، ويحبس الغلال عن الوجه البحرى، فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة. لمزيد من التفصيل. انظر. عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، دار المعارف 1981.ص337 وما بعدها.

(4) Berthier : memoires du marechel Berthier , campagne d' Egypte , t.1, Paris 1827, P.III.

(5) De la Jonquiére : L' expedition d' Egypte (1798-1801) Tome III. Paris 1899-1907, P. 215.

(6) لمزيد من التفصيل عن معركة سدمنت انظر. عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق. ج 1. ص 342 وما بعدها، نبيل السيد الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية 1798 – 1801، الطبعة الأولى الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997. ص 131 وما بعدها.

(7) د. محمد فؤاد شكرى: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، دون تاريخ ص 608.

(8) د. جلال يحيى. مصر الحديثة 1517-1805، الإسكندرية. دون تاريخ ص 406.

(9) Dominique dI Pietro : Voyage historique en Egypte pendant les campagnes des Gènèraux Bonaparte , Klèber Menou, Paris1827-pp-90,91.

(10) د. جلال يحيى : المرجع السابق. ص 407 .

(11) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق. ج1. ص ص 348 ، 349.

(12) محمود الشرقاوى : الجبرتى وكفاح الشعب. كتاب الهلال. العدد 184 يوليو 1966. ص 98.

(13) Vivan Denon : voyage dans la Basse et la Haut Egypte pendant les campegnes du Genarel Bonaparte, quatrieme edition. t. I, paris 1803. pp.306,307, Louis Reybaud : Histoire scientifique et militaire de L'Expedition Française en Egypte Tome III, Paris1830-1836, P.512.

(14) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق. ج1. ص 360.

(15) سليم البستانى : تاريخ نابليون بونابرت فى مصر وسوريا نقلا عن تاريخ فرنسا الحديث، الإسكندرية 1913. ص 69.

(16) De la Jonquiere. op. cit. T. 111. P. 521.

(17) Pièces diverses , Relatives aux opèration militaires et Politiques du général Bonaparte , Paris an vlll , p.192, Berthier. op.cit. p 116.

(18) Piéces diverses : op. cit. p. 193 , Berthier , op. cit. p.117 , Martin , Histoire de L´ Expedition francaise en Egypte. tome premiere , Paris 1815, p 348.

(19) انظر رسالة دافو إلى نابليون فى 12 يناير سنة 1799 والمنشورة فى

De la Jonquier. op. cit. t. Lll, p.523.

(20) سمهود : قرية كبيرة تقع على شاطئ النيل الغربى وتتبع حاليا مركز نجع حمادى بمحافظة قنا. لمزيد من التفصيل انظر محمد رمزى، القاموس فى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1954، القسم الثانى الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994. ص 197.

(21) نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق ص 185.

(22) محمد فرج. النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية، سلسلة كتب ثقافية، العدد رقم 181، الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة ، بدون تاريخ، ص 55، كمال الدين حسين عبد الرحيم. بونابرت والقصير والمعارك الرئيسية فى جنوب الصعيد. القاهرة 1996، ص 22.

(23) د. جلال يحيى. المرجع السابق ص 412.

(24) Martin: op. cit. t. l.p. 351.

(25) Dominque DI pietro: op.cit. p. 120.

(26) بلدة واقعة بالبر الشرقى للنيل جنوبى ادفو الواقعة على البر الغربى. انظر : عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق، ج1. هامش 42.ص 368 ولمزيد من التفصيل عن معركة الردسية انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السايق.ص ص 199، 200.

(27) لمزيد من التفصيل انظر. عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق.ج1 ص.369، نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص ص 201، 202.

(28) شمال دشنا بغرب بالقرب من الجبل الشرقى تبعد عن النيل مسيرة ساعة ونصف. انظر عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق. ج1 هامش 44 ص 369.

(29) لمزيد من التفصيل انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص ص 203، 204.

(30) لمزيد من التفصيل انظر.نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق ص. 204 وما بعدها.

(31) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق.ج1. ص 376، محمد فرج : المرجع السابق.ص 56، كمال الدين حسين عبد الرحيم : المرجع السابق. ص 38.

(32) عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق. ج1. ص376 وما بعدها، محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص102، محمد فرج. المرجع السابق ص ص56،57، كمال الدين حسين عبد الرحيم – المرجع السابق. ص ص 38،39.

(33) Dominique di Pietro : op. cit. p 144.

(34) بلدة صغيرة تقع على مشارف الصحراء، وتبعد نحو 20 كيلو متراً عن قنا. انظر. كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق . ص 42.

(35) لمزيد من التفصيل انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص 212 وما بعدها. كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق. ص.42 وما بعدها.

(36) لمزيد من التفصيل عن هذه المعارك انظر. عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق. ج I ص 384، 385، نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص 167 وما بعدها.

(37) بلدة كبيرة واقعة على طرف الصحراء غربى منفلوط وتتبع حاليا مركز منفلوط بمحافظة أسيوط. لمزيد من التفصيل انظر محمد رمزى. المرجع السابق. ج4 ص ص 82، 83، وذكر عنها الجنرال دافو أنها من أكبر بلاد الوجه القبلى سكانا وأكثرها ثراء وأعظمها مكانة، وأن أهلها كانوا يرسلون جماعات منهم إلى شاطئ النيل لمهاجمة السفن الفرنسية انظر رسالة الجنرال دافو إلى الجنرال دوجا المؤرخة 1مايو سنة 1799 والمنشورة فى La Jonquiére : op. cit. t. III. p. 643.

(38) عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق. ج1. ص ص 386، 387، محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص 103، محمد عبد الفتاح أبو الفضل. تأملات فى ثورات مصر على ضوء

قراءات تاريخية، الجزء الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992. ص 98.

(39) محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص 103، محمد فرج. المرجع السابق. ص 58.

(40) لمزيد من التفصيل انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص 175 وما بعدها.

(41) انظر رسالة ديتريس إلى الجنرال دافو المؤرخة فى 27 من أبريل سنة 1799 والمنشورة فى La Jonquiére : op. cit. t. III. pp 646 , 647.

(42) محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص 99.

(43) لمزيد من التفصيل انظر. كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق. ص 45 وما بعدها.

(44) محمود الشرقاوى: المرجع السابق. ص 108.

(45) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق. ج1. ص 392.

(46) نفسه. ج1. ص ص 380-381.

(47) محمود الشرقاوى: المرجع السابق. ص 108.

(48) نفسه. ص 106.

(49) كان هذا ما يميز المقاومة المصرية بشكل عام، حتى أنها نجحت إبان ثورة القاهرة الثانية (20مارس – 21 أبريل 1800) فى إقامة مصانع للبارود وصنع القنابل من حديد المساجد أو المطارق التى سارع الحرفيون إلى تقديمها. لمزيد من التفصيل انظر. د. نبيل السيد الطوخى: دور الحرفيين فى ثورة القاهرة الثانية إبان الحملة الفرنسية على مصر. منشور فى الثورة والتغيير فى الوطن العربى عبر العصور. أعمال ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. الطبعة الأولى. مركز البحوث والدراسات الاجتماعية. القاهرة 2005.ص 194 وما بعدها.

(50) رسالة من بواييه إلى الجنرال ديزيه بتاريخ 6 أغسطس 1799 منشورة فى مختارات من وثائق الحملة الفرنسية 1798 – 1801، مراجعة وإشراف د. مديحة دوس، اختيار الوثائق د. إلهام ذهنى، د. ناصر أحمد إبراهيم، هناء فريد، إعداد وترجمة باتسى جمال الدين، أميرة مختار، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية 2004 . ص 83.

(51) نبيل السيد الطوخى.المرجع السابق. ص203.

(52) رسالة من بواييه إلى الجنرال ديزيه، مؤرخة بتاريخ 1 أغسطس 1799 منشورة فى مختارات من وثائق الحملة الفرنسية.

(53) رسالة من بواييه إلى الجنرال ديزيه بتاريخ 1 أغسطس 1799، منشورة فى المصدر السابق.ص79.

(54) رسالة من بواييه إلى الجنرال ديزيه بتاريخ 6 أغسطس 1799، منشورة فى نفس المصدر. ص83.

(55) نفس الوثيقة، نفس المصدر. ص83 حيث يذكر بواييه "رغم أن المدفع ليس فى حالة جيدة إلا أنه يكفينى لضمان سلامتى أن يعلم العدو بامتلاكى واحداً لأبعث فى نفسه الرهبة من قريب ومن بعيد".

(56) رسالة من بواييه إلى الجنرال ديزيه بتاريخ 12 أغسطس 1799،منشورة فى نفس المصدر، ص87.

(57) نقلا عن De La Jonquiére : op. cit. t. III. P 596.

(58) ج. كرستوفر هيرولد. بونابرت فى مصر. ترجمة فؤاد أندراوس.مراجعة الدكتور محمد أحمد أنيس. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986. ص.254.

(59) أبو جرج. قرية تتبع مركز بنى مزار بمحافظة المنيا، ووردت فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد بوجرجا من أعمال البهنساوية، وفى التحفة أبو جرجا بالأعمال البهنساوية وفى تاريخ سنة 1230 هـ برسمها الحالى. لمزيد من التفاصيل انظر محمد رمزى. القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين الى سنة 1945، القسم الثانى، الجزء الثالث. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994 ص 209.

(60) Piéces diverses : op. cit. p. 227.

(61) كان عرب الجهمة يرابطون على الشط الأيسر بين دجلة وديروط أم نخلة حتى صفط خمار أمام مدينة المنيا، وكانت لهم خيام متناثرة فى أماكن شديدة التباعد فيما بينها، وكانوا يمتلكون أكثر من خمسمائة حصان. لمزيد من التفصيل انظر.

Jomard : observation sur les Arabes de L' Egypte Moyenne , in Description de L'E gypte , Etat modern, Tome 12 , Seconde تaddition Paris 1823 , pp 296,297.

- كما تذكر بعض المصادر الفرنسية شكوى بعض الضباط من عدم تعاون أهل القرى معهم مما كان يجعل هؤلاء الضباط يعاقبون مشايخها بالضرب مائة عصا. لمزيد من التفصيل انظر. رسالة بواييه إلى الجنرال ديزيه منشورة فى مختارات من وثائق الحملة الفرنسية.المصدر السابق. ص ص 87- 89.

(62) Desvernois : Memoires du Général Desvernois, Paris 1898, p. 188.

(63) Piéces Diverses : op. cit. P 228. Berthier.. op. cit. p.146

(64) لمزيد من التفصيل انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص 195 وما بعدها، كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق. ص 24-26.

(65) محافظ الحملة الفرنسية بدار الوثائق القومية، محفظة فترتها التاريخية من 30 سبتمبر سنة 1799 الى 18 يونية سنة 1801، (ظرف B6 161)

Reynier au citoyen pini. Benisouf le 20 Brumaire an 8.

(66) لمزيد من التفاصيل انظر محافظ الحملة الفرنسية بدار الوثائق القومية. محفظة فترتها التاريخية من 20 أغسطس إلى 31 أغسطس سنة 1800، ملف رقم 18.

L'Adjudand général Boyer au général Kléber à Miniet, Le 28 Fructidor an 7. (14 September 1799).

وتجدر الإشارة إلى أن الجنرال بويه ذكر أنه حرق أكثر القرى عصيانا وأعدم البعض ليكونوا عبرة لغيرهم.

(67) Jomard : op. cit. p 272.

(68) عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق. ج1، ص371، محمود الشرقاوى: المرجع السابق ص. 108.

(69) لمزيد من التفصيل انظر ناصر أحمد إبراهيم : المرجع السابق.

(70) من بلاد مركز ببا بمحافظة بنى سويف لمزيد من التفصيل انظر. محمد رمزى. المرجع السابق. ج3 ص 137.

(71) لمزيد من التفصيل انظر.

Vivant Denon : op.cit. T.1.P263, La Jonquiére. op. cit. t. III. PP 506-507.

عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق 12 ص 356، محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص 104.

(72) كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق. ص 12.

(73) لمزيد من التفصيل انظر ليلى عنان : الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة. سلسلة كتاب الهلال، العدد رقم 500، دار الهلال 1992 .ص ص 69 – 71.

(74) كريستوفر هيرولد. المرجع السابق. ص 267.

(75) نفس المرجع. ص 266.

(76) نقلا عن كريستوفر هيرولد المرجع السابق. ص 266،كمال الدين حسين. المرجع السابق. ص 26.

(77) محافظ الحملة الفرنسية. بدار الوثائق القومية، محفظة فترتها التاريخية من 20 إلى 31 أغسطس سنة 1800 ملف رقم 16.

Le Général Désaix au Général Klébér.Doc,No.180, le 12 september 1799.

* * *